روعة اللغة العربية (9)

يحيى صالح دحامي

ويستمر عطاء اللغة العربية بسخاءٍ جودها مِن مكنون بحرها الذي لا ينضب، كما هو معروف، نجد الشاعر العربي المعتز بلغته العربية الفصحى والمتصفة بالبديع والروعة، في إشارة إلى كون الشاعر العربي واحداً من مبتكري الكلمة، وفي العموم فالشاعر هو من القلائل الذين يجيدون روعة التعبير وزناً ومعنىَ في قصائده التي تعدُ، بلا شك، غنى (بمعنى الوفرة والثراء)، وتعد أيضاً غناء (بمعنى الشدو بأجمل الألحان) وكِلا المعنيين تجول من خلالهما المفاهيم الخالدة والأحاسيس الفياضة، والشاعر جعل ويجعل الشعر أداة للتواصل والتفاهم بين الناس من خلاله، وقد صدق من اعتبر الشاعر كالفنان الذي يرسم ويصور أجمل الصور الفعلية والحياتية ويشدو بأعذب الألحان ذات أعمق المعاني.

وقديماً أيضاً عُرِفَ الشاعرُ بأنَّهُ رسول القبيلة والعشيرة الذي يقول بلسانها القول الفصل في المواقف الهامة على اختلافها وأنواعها، سواءً كان مدحاً وفخراً أو مهاجمة أعدائه وأعداء قبيلته بسلاح أقوى من السيف والرمح، إنه سلاح الكلمة كالهجاء، وأجمل المواساة أن تكون شعراً عند العزاء ورثاءَ فقيد أو مصاب، والشاعرُ، مثل ذلك، هو الذي لديه القدرة الفائقة بمنح البأس والهيبة لقومه مِن خلال ما يسطح به من شعر الفخر والاعتزاز والفروسية وكذلك الشرف والشهامة والكرم، فهذه الخصال الحميدة يُرتقى بها عندما تُقال شعرا، والشاعر، بمشاعرِهِ الفياضةِ، هو ذلك الإنسان الذي يتصور ويصور الأحداث بدلالات وفحاواي جديدة، وهو الموجد والمستنبط لعلاقات وروابط شعورية قد لا يدركها غَيره من عامة الناس، ولازلنا مع أحد هؤلاء الشعراء العظماء الذين خَلّفوا آثاراً لا تُمحى وشاركوا إلى طور كبير في الشعر العربي الفصيح بلغة عربية صريحةٍ، إنه أميرُ وأبو الصعاليك عروة بن الورد العبسي.

من الكتب الجميلةِ والمفيدة التي قدّمت لنا وصفاً دقيقاً ومعبراً عن البيت الخاص بهذا المقال، إنه كتاب خطه الدكتور حنا نصر والموسوم بـ 'الناقة في الشعر الجاهلي'، ورأيت ألا يُغفَل الوصفُ الجميلُ لهذا البيت الذي يمزجُ في رسمِهِ وتشبيههِ للناقةِ ومثل ذلك الإناء أو القِدرِ معاً، يقول عروة:

*** عليها من الوِلدانِ ما قد رأيتُمُ   وتمشي، بجَنبيها، أراملُ عُيَّلُ**

كما يقول النقاد إن الشعر هو قول موجز، ولكنه يعني الكثير ويمكن شرح معانيه وأَوزانه بتفسيرات وتعبيرات ومدلولات كثيرة، والبيت الشعري أعلاه يُمثلُ نمط من ذلك القول، فالشاعر عروة بن الورد يُوصِلُ هذا القول بما

روعة اللغة العربية (9)

يحيى صالح دحامي

ويستمر عطاء اللغة العربية بسخاءٍ جودها مِن مكنون بحرها الذي لا ينضب، كما هو معروف، نجد الشاعر العربي المعتز بلغته العربية الفصحى والمتصفة بالبديع والروعة، في إشارة إلى كون الشاعر العربي واحداً من مبتكري الكلمة، وفي العموم فالشاعر هو من القلائل الذين يجيدون روعة التعبير وزناً ومعنىَ في قصائده التي تعدُ، بلا شك، غنى (بمعنى الوفرة والثراء)، وتعد أيضاً غناء (بمعنى الشدو بأجمل الألحان) وكِلا المعنيين تجول من خلالهما المفاهيم الخالدة والأحاسيس الفياضة، والشاعر جعل ويجعل الشعر أداة للتواصل والتفاهم بين الناس من خلاله، وقد صدق من اعتبر الشاعر كالفنان الذي يرسم ويصور أجمل الصور الفعلية والحياتية ويشدو بأعذب الألحان ذات أعمق المعاني.

وقديماً أيضاً عُرِفَ الشاعرُ بأنَّهُ رسول القبيلة والعشيرة الذي يقول بلسانها القول الفصل في المواقف الهامة على اختلافها وأنواعها، سواءً كان مدحاً وفخراً أو مهاجمة أعدائه وأعداء قبيلته بسلاح أقوى من السيف والرمح، إنه سلاح الكلمة كالهجاء، وأجمل المواساة أن تكون شعراً عند العزاء ورثاءَ فقيد أو مصاب، والشاعرُ، مثل ذلك، هو الذي لديه القدرة الفائقة بمنح البأس والهيبة لقومه مِن خلال ما يسطح به من شعر الفخر والاعتزاز والفروسية وكذلك الشرف والشهامة والكرم، فهذه الخصال الحميدة يُرتقى بها عندما تُقال شعرا، والشاعر، بمشاعرِهِ الفياضةِ، هو ذلك الإنسان الذي يتصور ويصور الأحداث بدلالات وفحاواي جديدة، وهو الموجد والمستنبط لعلاقات وروابط شعورية قد لا يدركها غَيره من عامة الناس، ولازلنا مع أحد هؤلاء الشعراء العظماء الذين خَلّفوا آثاراً لا تُمحى وشاركوا إلى طور كبير في الشعر العربي الفصيح بلغة عربية صريحةٍ، إنه أميرُ وأبو الصعاليك عروة بن الورد العبسي.

من الكتب الجميلةِ والمفيدة التي قدّمت لنا وصفاً دقيقاً ومعبراً عن البيت الخاص بهذا المقال، إنه كتاب خطه الدكتور حنا نصر والموسوم بـ 'الناقة في الشعر الجاهلي'، ورأيت اَلا يُغفَل الوصفُ الجميلُ لهذا البيت الذي يمزجُ في رسمِهِ وتشبيههِ للناقةِ ومثل ذلك الإناء أو القِدرِ معاً، يقول عروة:

*** عليها من الوِلدانِ ما قد رأيتُمُ   وتمشي، بجَنبيها، أراملُ عُيَّلُ**

كما يقول النقاد إن الشعر هو قول موجز، ولكنه يعني الكثير ويمكن شرح معانيه وأَوزانه بتفسيرات وتعبيرات ومدلولات كثيرة، والبيت الشعري أعلاه يُمثلُ نمط من ذلك القول، فالشاعر عروة بن الورد يُوصِلُ هذا القول بما

سبقه وأيضاً بما يليه، ولن يُفهم فهماً كاملاً إلا باستيعاب الأبيات متصلة، وقد تم التطرق الى عدد منها في مقالات سابقة وهي:

* ألا إنّ أصحابَ الكنيفِ وجدتُهم كما الناس لما أخصبوا وتمولوا (ديوان عروة، 1998 ص 91-93)

* وإنّي لمدفوعٌ إليّ ولاؤهم بماوان إذ نمشي وإذ نتململُ

* وإذ ما يريح الحي صرماء جونة ينوسُ عليها رحلُها ما يحلّلُ

* موقَّعةُ الصَّفقينِ، حدباءُ، شارفٌ تُقَيَّدُ أحياناً لديهم وتُرحَلُ

وما يخص هذه الجزئية هو البيت التالي من قصيدة أصحاب الكنيف

* عليها من الوِلدانِ ما قد رأيتُمُ وتمشي، بجَنبيها، أراملُ عُيَّلُ

يخاطب الشاعر أصحابه متفضلاً عليهم بأنه ليس بخيلاً ولا شحيحً ولا أناني بل على العكس من ذلك، الضدُ من تلك المدلولات هي أوصافه وطباعه، حيث أن ما يَغنمه يُقدمه عطيةً لمن هو في حاجةٍ، وهنا نجدُ الإيثارُ والكرمُ، يقول ابن الورد 'عليها من الوِلدانِ ما قد رأيتُمُ' مستخدماً التشبيه والاستعارة والمقارنة، المقارنة في هذا السياق تدل على أكثر من جانبٍ، يجوزُ القولُ بِأنَ المقارنة بينهُ وبينَ مَن خَذلهُ مِن أصحابِ الكنيفِ، ويجوز القول أيضا أن هناك مقارنة بين الناقةِ وبين الاناءِ الخاص بطهي الطعام وبوجه خاص لحم النوق.

من النواحي الجميلة في هذا البيت، كسابقيه، الاستخدام البديع للمفردات اللغوية المعبرة وذات المعاني العميقة ومن ذلك الكلمة الأولى 'عليها' مشتقة من العُلاَ والرِفعة والسُمو، وفي المعجم نجدها مشتقة من 'عَلَا' بمعنى سما فِي الْمَكَانِ و يقال ذلك الفردُ مِنْ (عِلْيَةِ) القوم بمعنى شَرِيفٌ ورَفِيعٌ في النسب، ويقال أيضاً 'عَلَا' فِي الْأَرْضِ أي تجبر وتَكَبَّرَ، ونفهم أن 'الْعَلْيَاءُ' تعني المكَانِ المشْرِف، ومن المرادفات أيضاً نجد 'الْعَلِيُّ' بمعنى القدير والرَّفِيعُ، ونقول رجل أَعْلَاهُ اللَّهُ أي رَفَعَ منزلته، ويقال علاه على ظهر الدابة أي امتطاها، هذه عدد من المفردات التي لها ارتباط بأصل المصطلح.

أما 'الوِلدانِ' فأصلها 'الْوَلَدُ' ويجوز أن يَكُون وَاحِدًا وَجَمْعًا و 'الْوَلِيدُ' هو الصَّبِيُّ وتُجمْعُ كمثل 'وِلْدَانٌ' والتي تعني صِبْيَانٍ، وغيرها العديد من المرادفات وأغلبها متواترة وواضحة، وما يليه هو الأكثر أثراً في هذا الشطر من البيت 'ما قد رأيتُمُ' والخطاب في ضمير المخاطب المستتر تقديره أنتم له أكثر من توجيه، مثل مخاطبته لجماعته الجاحدين،

ويمكن القول أنها موجّهةٌ لكل مستمعٍ وقارئٍ بقصد فهم فحواها وتبيان شخصية الشاعر الفارس المتصلة بالكرم والجود والإيثار، والخالدة على مرِ الزمن.

أما الكلمة التالية 'رَأَى' هي مركز الشطر الأول، والرؤية تتعدى مجرد البصر بالعين الى البصيرة بالعقل والفؤاد، ومشتق من ذلك 'الرَّأْيُ' وهو المشورة في موضوع معين بعد النقاش حيثَ يُقَالُ قدم رَأْيًا سديداً وموفقاً وكان رايه صواب، ومن المرادفات ايضاً 'مُرَاءٍ' وجمعها 'مُرَاءُونَ' ومن ذلك مصطلح 'الْمِرْآةُ' بِكَسْرِ الْمِيمِ وهي الوسيلة الَّتِي يُنْظَرُ فِيهَا وتعكس الشي كما هو اذا كانت 'الْمِرْآةُ' مستقيمة، بمعنى لا مقعرة ولا محدبة وإلا فإن الانعكاس يكون مغايراً للواقع، والجمع 'مَرَايَا'، 'الْمَرْأةُ' تطلق على الانثى الجميلةِ وذلك بِفَتْحِ الْمِيمِ فهي تدل على، كما نستشفه من المعجم، 'الْمَنْظَرُ الْحَسَنُ' فيُقَالُ: امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمَرْآةِ، ويجوز أن نقول في العموم فُلَانٌ من الناسِ حَسَنٌ فِي 'مَرْآةِ' الْعَيْنِ أَيْ فِي الْمَنْظَرِ والمشهد، و'الرَّأْي' هو الِاعْتِقَاد وَالْعقل وَالتَّدْبِير و التفكر والنَّظَرَ والإبصار والتأمل وَيُقَال رَأَيْته رَأْي الْعين حَيْثُ يقع عَلَيْهِ الْبَصَر، وأختم بـ 'الرُّؤْيَة' وذلك إبصار ومشاهدة الهِلَال، أي هلال رَمَضَان عند أوّل لَيْلَة مِنْهُ وَفِي حَدِيث الرسول صلى الله عليه وسلم 'صُومُوا لرُؤْيَته'، وعديد من المرادفات والمعاني المتنوعة، أما 'الْأَرْمَلُ' ففحواها الرَّجُلُ الَّذِي توفيت عنه زوجه ولَا امْرَأَةَ لَهُ أَما معنى 'الْأَرْمَلَةُ' فهو يشير إلى الْمَرْأَةُ الَّتِي مات أو فقد زوجها ولم تتزوج بعده، فيقال: 'أَرْمَلَتِ' الْمَرْأَةُ أي مَاتَ عَنْهَا زَوْجُهَا.

والكلمة الأخيرة والمنشودة في الشطر الثاني من هذا البيت 'وتمشي، بجَنبيها، أراملُ عُيَّلُ' هي 'عُيَّلُ'، من جماليات اللغة العربية الفصحى أنها البحر في أحشائه الدر كامنُ كما وصفها الشاعر المرهف حافظ إبراهيم – ينظر في الأوليات: العرب والأدب والإسلام والجاهلية والشعر لأحمد هزايمة (2007 ص 259)، فالكلمة هنا معناها جليٌ واضحٌ ولكن الممتع هو ثراء وغنى المفردات والمصطلحات ومرادفاتها التي لا تنضب، كشفاً عن المرادفات نجد في المعجم المشتقات التالية: 'الْعَوْلُ' و'الْعَوْلَةُ' و 'الْعَوِيلُ' ومعنى ذلك يشيرُ الى رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْبُكَاءِ والنواح والعويل، وكلمة 'عَالَ' عِيَالَهُ بمعنى أَنْفَقَ عَلَيْهِمْ بما يعيشهم، وكلمة 'عَالَ' تعني الظلم وهو ضد العدل ويقال عَالَ فلان فِي حُكْمِه بمعنى جَارَ وَمَالَ عن العدل.

نستعرض، من خلال هذا البيت، العلاقة المتميزة التي تربط بين الناقة التي تسير بفوائد عظيمة على أصحابها من خدمة الركوب والأحمال في الترحال، وبما يَجُودُ ويَمُنُ به جسمها من خيرٍ تحملهُ بَعد نحرها، وبين القِدر الذي يحملُ في كنفه خير ما وضع به من لحم الناقة وأصبح يَحمِل وَيُحمَل؛ يَحمِلُ في طياته الطعام وَيُحمَل بسواعد الرجال، فالقدر حَاملٌ مَحمُولُ كما الناقةِ حَاملٌ للحمها وهيَ حيةٌ، ومحمول لحمها بعد جزرها وطبخها، فكما أن الناقة تجود على مالكيها باللبن والوبر وباللحم ببذل وسخاء، وفي نفس الوقت فهي تُرضِعُ أبناؤها وتعطف وتحنو عليهم، هكذا القِدر يوزّعُ ما يحتوي من طعام على الجوعى واليتامى والفقراء والمعوزين، سيما في أيام القحط والجدب والجفاف والضيق والبلاء، دون الالتفات إلى اتجاهاتهم الذاتية وانتماءاتهم القبلية، وبدون منّة، فوعاء الطعام هذا

يُؤكِلُ الجياع الذين هم له مترقبون بفارغ الصبر كل صباح ومساء وبصورة متواصلة دون انقطاع، وفي ذلك يقول عروة بن الورد في الشطر الثاني من بيت سابق 'ينوسُ عليها رحلُها ما يحلّل'، فالرحلُ هنا يقصد بها الاثافي التي توضع أسفل القدر لا تحول ولا تزول، قائمة أبد الدهر، فهذا الوصف وهذا الرسم إنما هو من إبداع وروعة اللغة العربية الفصحى التي رُكِبَت في ناطقها الشاعر الفارس عروة بن الورد العبسي.

هذا التشبيه الحسي يفيضُ بنا إلى المعنى المقصود الذي اختزله الشاعر في بطن أبياته برسم تصويري بديع مفاده أنه هو صاحب الأفضال العديدة، أولاها صبرهُ واحسانهُ إلى عصبتهِ التي جحدت معروفه معهم، ولو أنه عاقبهم فلن يُلام كونهُ هو مَن أقامهم من الذل الى الرفعة ومِن الوضاعةِ الى العزِ، فقد أعطاهم كل نصيبه ولبى شروطهم وهو القادر عليهم، وثانيها أن ما يكسبه ويغنمه لا يحوزه لنفسهِ وأهل بيتهِ بل يوزعهُ على المحتاجين والفقراء، وثالثها أن عروة بن الورد لا يُمَيّز بين مَن يطلبهُ أهو مِن قومهِ أو مِن غيرهم، فالإنسانيةِ عِندهُ تَسمو فوقَ الانحدارات القبليةِ أو العشائريةِ، وذلك هو ما جاء به الإسلام الحنيف.

يتبع 10